د. بدر بن علي بن طامي العتيبي

# موتُ العلماء ثلمة في الإسلام

**إنّ الله تعالى تكفّل بحفظ الدين ورعايته، ببقاء أهل روايته ووعايته، فخيرُ وعاءٍ يُحفظ فيه العلم، وتصان فيه الشريعة، هم العلماء الصلحاء النصحاء الأتقياء، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٩).**

والله تعالى يقول مبشرًا بحفظ القرآن الذي هو رأس العلم وأساسه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، وما حفظه إلا بالعلماء الذين اختارهم الله لحمل دينه، وعلّمهم التأويل، وفضلهم على سائر المؤمنين، وذلك في كل زمان وأوان، رفعهم بالعلم وزينهم بالحلم، بهم يُعرف الحلالُ من الحرام، والحق من الباطل، والضار من النافع، والحسن من القبيح. فضلهم عظيم، وخطرهم جزيل، ورثة الأنبياء، وقرة عين الأولياء، الحيتان في البحار لهم تستغفر، والملائكة بأجنحتها لهم تخضع، والعلماء في القيامة بعد الأنبياء تشفع، مجالسهم تفيد الحكمة، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة، هم أفضل من العُبّاد، وأعلى درجة من الزُّهّاد، حياتهم غنيمة، وموتهم مصيبة، يُذَكِّرُون الغافل، ويعلمون الجاهل، لا

**خير وعاء يُحفظ فيه العلم، وتُصان فيه الشريعة، هم العلماء الصلحاء**

يُتوقع لهم بائقة، ولا يُخاف منهم غائلة، بحسن تأديبهم يتنازع المطيعون، وبجميل موعظتهم يرجع المقصرون، جميع الخلق إلى علمهم محتاج، والصحيح على من خالف بقولهم محجاج.

## الطاعة لهم واجبة

الطاعة لهم من جميع الخلق واجبة، والمعصية لهم محرمة، من أطاعهم رَشَد، ومن عصاهم عَنَد، ما ورد على إمام المسلمين من أمر اشتبه عليه، حتى وقف فيه فبقول العلماء يعمل، وعن رأيهم يصدر، وما ورد على أمراء المسلمين من حكم لا علم لهم به فبقولهم يعملون، وعن رأيهم يصدرون، وما أشكل على قضاة المسلمين من حكم، فبقول العلماء يحكمون، وعليه يعولون، فهم سراج العباد، ومنار البلاد، وقِوام الأمة، وينابيع الحكمة، هم غيظ الشيطان، بهم تحيا قلوب أهل الحق، وتموت قلوب أهل الزيغ، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، إذا انطمست النجوم تحيروا، وإذا أسفر عنها الظلام أبصروا.

هؤلاء العلماء، وهذا هو فضلهم، فما الظن بمصيبة فراقهم، وفاجعة فقدهم؟! هذا -لَعَمْرُك- أظهر علامات غياب الدين، وقبض العلم، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله لا يَقْبِضُ العلم انتزاعًا يَنْتَزِعُه من الناس - وفي رواية: من العِباد - ولكن يَقْبِضُ العلم بِقَبْض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا: اتّخَذ الناس رُؤوسًا جُهّالًا، فَسُئِلُوا، فأفْتَوْا بغير علم، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا» متفق عليه.

## أي فاجعة أكبر؟!

فأي فاجعة أكبر من موت عالم، وهلاك فقيه، وفوات جيلٍ يحمل الآثار؟!

لما مات الصحابي الجليل، والفرضي البارع زيد بن ثابت رضي الله عنه، وقف ابن عباس على قبره، وقال: «هكذا يقبض العلم، لقد دفن اليوم علم كثير». رواه الحاكم في (المستدرك).

وعن سَلمان الفارسي رضي الله عنه قال: «لا يزال الناسُ بخير ما بقي الأول حتى يتعلّم الآخِر، فإذا هلك الأوّلُ قبل أن يتعلّم الآخِر هلك الناس». رواه الدارمي في «سننه».

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «تعلّموا العلمَ قبل أن يُقبض العلمُ، وقبضُه أن يُذهَب بأصحابه ...» إلى أن قال: «فمالي أراكم شباعًا من الطعام، جِياعًا من العلم» رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله».

وقال ابن مسعود: «عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه ذهاب أهله، وعليكم بالعلم، فإن أحدكم لا يدري متى يفتقر إليه، وعليكم بالعلم، وإياكم والتنطع والتعمق، وعليكم بالعتيق» رواه البغوي في (شرح السنة).

وقال كعب: «عليكم بالعلم قبل أن يذهب؛ فإن ذهاب العلم موت أهله، موت العالم نجم طمس، موت العالم كسر لا يجبر، وثلمة لا تسد، بأبي وأمي العلماء ـ قال: أحسبه قال-: قبلتي إذا لقيتهم، وضالتي إذا لم ألقهم، لا خير في الناس إلا بهم». رواه الآجري في (أخلاق العلماء).

وعن الحسن قال: «موتُ العالِم ثُلمة في الإسلام لا يسدُّها شيء ما طرد الليل والنهار». رواه ابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله).

وقيل لسعيد بن جبير: ما علامة هلاك الناس؟ قال: «إذا هلك علماؤهم». رواه البغوي في (شرح السنة).

وعن أيُّوب السّختياني قال: «إنّه ليَبلُغني موتُ الرّجل من أهل السُّنّة، فكأنّما سقط عضوٌ من أعضائي» رواه أبو نعيم في (الحلية).

وقال سفيان بن عيينة: «وأي عقوبة أشد على أهل الجهل أن يذهب أهل العلم». رواه البغوي في (شرح السنة).

قال الإمام الآجري في (أخلاق العلماء) (ص: ٣٠): «فما ظنكم ـ رحمكم الله ـ بطريق فيه آفات كثيرة، ويحتاج الناس إلى سلوكه في ليلة ظلماء، فإن لم يكن فيه مصباح وإلا تحيروا، فقيض الله لهم فيه مصابيح تضيء لهم، فسلكوه على السلامة والعافية، ثم جاءت طبقات من الناس لا بد لهم من السلوك فيه، فسلكوا، فبينما هم كذلك، إذ طفئت المصابيح، فبقوا في الظلمة، فما ظنكم بهم؟ هكذا العلماء في الناس: لا يعلم كثير من الناس كيف أداء الفرائض،

أي فاجعة أكبر من موت عالم، وهلاك فقيه، وفوات جيل يحمل الآثار؟!

وكيف اجتناب المحارم، ولا كيف يعبد الله في جميع ما يعبده به خلقه، إلا ببقاء العلماء، فإذا مات العلماء تحير الناس، ودرس العلم بموتهم، وظهر الجهل، فإنا لله وإنا إليه راجعون! مصيبة ما أعظمها على المسلمين!».

## صلاحُ الوجود بالعلماء

وقال ابن القيم في (مفتاح دار السعادة) (ص:٧٤): «... لمّا كان صلاحُ الوجود بالعلماء، ولولاهم كان الناسُ كالبهائم، بل أسوأ حالًا، كان موتُ العالِم مصيبة لا يجبرها إلّا خَلَف غيره له، وأيضًا فإنّ العلماءَ هم الذين يسوسون العبادَ والبلاد والممالك، فموتُهم فسادٌ لنظام العالَم، ولهذا لا يزال الله يغرسُ في هذا الدّين منهم خالفًا عن سالف يحفظُ بهم دينَه وكتابَه وعبادَه.

وتأمّل إذا كان في الوجود رجلٌ قد فاق العالَم في الغنى والكرم، وحاجتهم إلى ما عنده شديدة، وهو محسنٌ إليهم بكلّ ممكن ثم مات، وانقطعت عنهم تلك المادة، فموتُ العالِم أعظمُ مصيبة من موت مثل هذا بكثير، ومثل هذا يموت بموته أممٌ وخلائق».

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (الرعد: ٤١).

قال ابن عباس: «ذهاب فقهائها، وخيار أهلها»، وعن ابن مسعود ومجاهد وعطاء نحوه، وقال يحيى: وبلغني عن أبي جعفر محمد بن علي قال: «موت عالم أحب إلى إبليس من موت ألف عابد»، وروي في حديث مرفوع -لا يثبت-: «موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء أبدًا»، وفي لفظ: «لا تُسَدُّ ما اختلف الليل والنهار»، وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا عليه، وقيل عن الحسن كما تقدم.

## حجم المصيبة على الإسلام والمسلمين

فإذا علم العقلاء حجم هذه المصيبة على الإسلام والمسلمين -وأخص الناس طلاب العلم- حملهم ذلك على إدراك العلماء، والحرص عليهم، وطلب مجالسهم والاستفادة منهم قبل أن يفارقوا الحياة، ويموتوا ويموت معهم من العلم الشيء الكثير.

وقد أحسن من أنشد:

لَقَدْ عَفَتْ مِنْ دِيَارِ الْعِلْمِ آثَارُ
فَأَصْبَحَ الْعِلْمُ لا أَهْلٌ وَلا دَارُ
يَا زَائِرِينَ دِيَارَ الْعِلْمِ لا تَفِدُوا
فَمَا بِذَاكَ الْحِمَى وَالدَّارِ دَيَّارُ
تَرَحَّلَ الْقَوْمُ عَنْهَا وَاسْتَمَرَّ بِهِمْ
مُشَمِّرٌ مِنْ حُدَاةِ الْبَيْنِ سَيَّارُ
قَدْ أَوْرَدَ الْقَوْمَ حَادِيهِمْ حِيَاضَ رَدًى
فَمَا لَهُمْ بَعْدَ ذَاكَ الْوِرْدِ إِصْدَارُ
لَهَفِي عَلَى سُرُجِ الدُّنْيَا الَّتِي طَفِئَتْ
وَلا يَزَالُ لَهَا فِي النَّاسِ أَنْوَارُ
لَهَفِي عَلَيْهِمْ رِجَالًا طَالَمَا صَبَرُوا
وَهَكَذَا طَالِبُ الْعَلْيَاءِ صَبَّارُ
لَهَفِي عَلَيْهِمْ رِجَالًا طَالَمَا عَدَلُوا
بَيْنَ الأَنَامِ وَمَا حَابَوْا وَلا جَارُوا
مَالُوا يَمِينًا عَنِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا
لأَنَّهَا فِي عُيُونِ الْقَوْمِ أَقْذَارُ
هُمُ الَّذِينَ رَعَوا لِلْعِلْمِ حُرْمَتَهُ
لِلْعِلْمِ بَيْنَهُمْ شَأْنٌ وَمِقْدَارُ
صَانُوهُ طَاقَتَهُمْ عَمَّا يُدَنِّسُهُ
كَمَا يَصُونُ نَفِيسَ الْمَالِ تُجَّارُ
وَأَحْسَنُوا فِيهِ تَصْرِيفًا لأَنَّهُمُ
لَهُمْ مِنَ اللهِ تَوْفِيقٌ وَإِقْدَارُ
رَأَوهُ كَالنَّجْمِ بُعْدًا لَيْسَ يُدْرِكُهُ
بَاعٌ قَصِيرٌ وَفَهْمٌ فِيهِ إِقْصَارُ
فَدَوَّنُوهَا فُرُوعًا مِنْهُ دَانِيَةً
لِكُلِّ جَانٍ تَدَلَّتْ مِنْهُ أَثْمَارُ
يَا صَاحِ فَالْزَمْ طَرِيقَ الْقَوْمِ مُتَّبِعًا
فَرِيقَهُمْ لَيْسَ بَعْدَ الْيَوْمِ إِنْظَارُ
وَوَاجِبٌ قَصْرُكَ الْمَمْدُودَ مِنْ أَمَلٍ
مَسَافَةُ الْعُمْرِ فِي دُنْيَاكَ أَشْبَارُ

اللهم احفظ علماءنا وبارك في حياتهم، وانفعنا بعلومهم وفهومهم.